وليم شكسبير ١٥٦٤ ـ ١٦١٦

« بمناسبة مرور اربعمائة عام على ولادته »

بقلم

الدكتور عبدالجبار المطلبي

عميد معهد اللغات العالى

مستلة

من

مجلة معهد اللغات العالى

جامعة بغداد

العدد الاول

مايس ١٩٦٤

مطبعة الحكومة ـ بغداد

وليم شكسبير ١٥٦٤ ـ ١٦١٦

« بمناسبة مرور اربعمائة عام على ولادته »

بقـلم

الدكتور عبدالجبار المطلبي

عميد معهد اللغات العالى

مستلة

من

مجلة معهد اللغات العالى

جامعة بغداد

العدد الاول

مايس ١٩٦٤

مطبعة الحكومة ـ بغداد

وليم شكسبير ١٥٦٤ ـ ١٦١٦

« بمناسبة مرور اربعمائة عام على ولادته »

بقلم الدكتور عبدالجبار المطلبي
عميد معهد اللغات العالي

مقـدمة

فى عام ١٥٨٦م مثلت مسرحية المأساة الاسـبانية (The Spanish Tragedy) لتوماس كيد (Thomas Kyd) على مسرح « تجارى » فاجتاحته اجتياحا ، ولقيت مـن النظّارة نجاحا كبيرا ، وبقيت ناجحة زمنا طويلا ، فشجع هذا النجاح شعراء المسـرح الآخرين على ان يحذو حذوه[١] .

ومسرحية المأساة الاسبانية هذه من مآسى الانتقام[٢] التى تعتمد على الاثارة والتهيج فمناظر القتل فيها تأخذ مكانها على المسرح لا خارجه ، كما تعتمد على الحيل المسرحية ، وتتميز بالحذق والمهارة . اما مؤلفها توماس كيد فقد نال حظا من الثقافة الجامعية ، ولكن المسرح جذبه اليه ، ذلك لانه كاتب مسرحى قبل كل شىء ، ولد مسرحيا ووهب هذه النظرة التى يتميز بها كاتب المسرحية من اختيار الوقائع التى تناسب المسرح والتمثيل[٣] .

واقبال الجمهور على هذه المسرحية يعنى انه اصبح شيئا مهما فى الفن المسرحى ، لانه استطاع بمـا يدفع من ثمن لدخوله أن يمـد فرق التمثيل ومدير المسرح وكاتبـه بما يعينهم على العيش . وقد كان الممثلون الى القرن السادس عشر من الهواة يمثلون ما تسمى بالفترات (Interludes) او الحوار المسـرحى[٤] ، ويغنـون الاغانى . ولم يكن لهم مكان خاص بالتمثيل ، وظلوا كذلك طوال ثلاثة أرباع القرن السادس عشر ، ثم دعت ظروف المجتمع الانكليزى ، والتقدم الذى أصابته اوربا نتيجة عهد النهضـة والاكتشافات الجغرافية ، وتعاظم القوة السياسية ، وازدياد الثراء ، الى هـذا التطور الذى ولدت فيه المسارح الحقيقية . ومن جملة الاسباب المباشرة له ان الممثلين الهواة

(١) Eaton, Walter Prichard; Drama in English, New York, 1930, 74
(٢) Fuller, Edmund, A Pageant of the Theatre, New York, 1941, 116
(٣) The Drama inEnglish, 74
(٤) Gassner, John; Master of the Drama, New York, 1945, 158

لم يعودوا يرضوا حاجة الجمهور واقباله على المسرح ، بانتاجهم المرتجل الذى لا تنتظمه اوقات معينة ولا مكان خاص • ولم تعد أفنية الحانات ولا بيوت النبلاء صالحة لهـــذا التطور الجديد ، كما لم يعد كثير من الممثلين الهواة قادرين على اجادة ادوارهم فى ملاهى دنيوية اجادة ترضى الجمهور • وهكذا بنى اول مسرح تجارى ، **(عام ١٥٧٦)** ومثلت عليه المأساة الاسبانية كما مر بنا (١) •

لقد اصبح الجمهور ، لقاء ما يدفع من ثمن لدخوله ، يتحكم فى المســـرح : اعداده وممثليه ومؤلفه ومديره ، فصار يحسب له حساب كبير • وقد بنى جون بربج (John Burbage) **(والد رتشارد بربج الممثل الكبير ايام شكسبير) هذا المســـرح** التجارى المسمى : المسرح (The Theatre) خارج مدينة لندن ليتهرب من الضريبـة ومن تدخل سلطات المدينة • وفى ظرف عام واحد تقريبا أفتتح مسرح آخر قربه سُمي بالستار (The Curtain) (٢) • وما ان انتهى القرن حتى كانت هناك عدة مسارح تتنافس فيما بينها على اجتذاب الجمهور (٣) •

ولا نعرف تماما شكل المسرح الايلزابثى على كثرة ما كتب حوله ، فقد تضاربت الآراء فى ذلك ، وما انحدر الينا من الصور عن المسارح أنذاك متناقض متضارب ايضا ، ولكننا نستطيع ، مع ذلك ، ان نلم بأجزاء من ذلك المسرح الذى كتب له كيد و مارلو و شكسبير • فقد احتذت اولى المسارح أفنية الحانات التى كانت مكان التمثيل قبل ذلك ، وربما تأثرت كثيرا او قليلا بالمسارح الرومانية المفتوحة (Amphitheatres) التى كانت آثارها باقية حتى ذلك العهد (٤) •

ويبدو من وصف لرجل انكليزى شاهد مسرحا فى البندقية عام **١٦١١** ، ومن مقارنته لذلك المسرح بما فى بلاده ، ان المسرح الانكليزى متفوق على مسرح البندقية فى بنائه وعدد مقاصيره (وان ســـمح مســـرح البندقية بظهور النســـاء ممثلات على خشبته (٥) •

---

(١) The Drama in English, 75 — 76.

(٢) The Drama in English, 76; Wilson, John Dover; Life in Shakespeare's England, London, 1959, 207 (A Survey of London by John Stow, 1558).

(٣) A Pageant of the Theatre, 119.

(٤) The Drama in English, 76.

(٥) Life in Shakespeare's England, 211 — 212.

ويتضح من هذا ان الجو كان قد تهيأ على نحو لم يألفه كتاب المسرحية قبل ذلك وبدا وكأنه يدعو عباقرة الفن الى هذا الفناء الذى تتعرى فيه النفوس من اطارها الظاهر ، فتظهر كما هى فى كامن عواطفها ونزواتها واحلامها وصراعها من اجل طموحها ...

ودخل المسرح شاب آخر من كمبرج هو « مارلو » ، فاستحوذت شخصيته على اهتمام الناس ، وظل ، منذ ان قتل عام ١٥٩٣ ، وهو فى التاسعة والعشرين ، حتى الآن ، اعظم اهل زمانه ومن تلاه ــ ما عدا شكسبير ــ فى قوة الشاعرية والمأساة (١) . وقد كان مارلو ابن عصر النهضة فى شكه وحب استطلاعه الشديد ، دخل المسرح وليس له من الثقافة المسرحية ما يستطيع به ان يستخدم ما يملك من قوى ومواهب ، ولكنه كان يتميز بالخيال البعيد والنفاذ فى روح المأساة ، وهو أول من عالج الشعر الحر فى المسرح ، وشعر معاصروه ان ذلك المخلوق السماوى المتمرد قد وجد الحوار « الدرامى » السحرى الذى استطاع به ان يفتح للجمهور عواطف القلب العميقة (٢) .

ولقد صنع مارلو هوة بين العالم المادى والعالم الروحى وحرر « الدراما » من سيطرة الكنيسة فجعل ابطاله يخوضون معاركهم فى العالم المادى ، غير أن لانتصاره صفة الاشياء السريعة الزوال ، فيتمردون على البقاء فى أعماق ضمائرهم المظلمة بلا جدوى (٣) .

ومهما يكن تمرد مارلو وقوة شاعريته ، فقد بقيت بعض اسباب المسرح القديم تشده اليه وتحد من حريته ، فكان يقاومها جاهدا وتحاول ان تقص من جناحه وتهوى به الى الحضيض ، وقد استطاع خلفه شكسبير ان يقطع تلك الاسباب بقوة عبقريته ، ويحرر « الدراما » منها ويدخل بها خائضا خضم الحياة بعد ان أفاد من تجربة مارلو فى تمرده وممارسته للشعر الحر اداة للحوار المسرحى .

حياته ومراحل نشأته الفنية

يقف شكسبير متفردا فى عظمته ، لا ينازعه احد فى الادب المسرحى الناطق

(١) A Pageant of the Theatre, 109; The Drama in English, 89.

(٢) انظر The Drama in English, 90.

(٣) Fluchére, Henri; Shakespeare, London, 1960, 30

بالانكليزية ، وربما لا ينازعه كاتب في أية لغة ، منذ زمن الاغريق حتى يومنا هذا[1] . ومن الغريب حقا أننا لا نعرف عن حياة هذا العبقري ، على عظمته ، مايتناسب وعلو شأنه .

لقد زعم نفر من الناس – ولا يزال يزعم آخرون – أن شكسبير لم يكن غير اسم يختفي وراءه المؤلف الحقيقي [2] . واختلفوا في اسم هذا المؤلف الحقيقي ، وذكروا اسماء متعددة ، وزعم بعضهم ان المسرحيات المنسوبة الى شكسبير تكشف عن معرفة للاغريقية واللاتينية ولم يعرف عن شكسبير دراسة جامعية تؤهله لذلك ، وافترض بعضهم ان المؤلف الحقيقي هو (فرانسس بيكون) [3] الفيلسوف المعروف . واسهل الردود على مثل هذه المزاعم هو اننا لا نعلم شيئا كثيرا عن وقائع طفولة شكسبير وصباه ومادمنا نجهل وقائع حياته ولا نقطع بيقين في أمر ثقافته ، فليس من حقنا أن ننفي عنه وجود ظروف هيأت له أن يشدو شيئا من الثقافة – ولا تخلو اخباره من اشارات لذلك كما سيأتي – بل لعله استفد من مدرس جامعي لقيه في مدرسة مدينته التي قيل انه درس فيها او لعله درس ، على نحو ما ، على يد مرب ، هيأه له أبوه ، أو هيأته له مصادفات غريبة ، وما اكثر مصادفات الحياة وغرائبها .

اما أن يكون المؤلف هو « فرانسس بيكون» فهذا لا تؤيده قدرة الانسان المحدودة وما من امرىء ذي حظ من نفاذ العقل ، يؤازر هذا الرأي ، أما نحن فلا يمكننا ان نخوض في مثل هذا الجدل ، ويكفي ان نقول – كما قال ادموند فلر – ان « فرانسس بيكون » قد جمع في حياته ما يعادل مهنتي رجلين مستقل أحدهما عن الآخر ، فقام بهما خير قيام – ومما قام به خطط سياسية فيها شدائد ومخاطر – فان فرضت ان من الممكن اضافة ما قام به شكسبير من انتاج ادبي ضخم الى أعماله ، ذلك الانتاج الذي يملأ حياة صاحبه ولا يدع له فرصة يلتفت فيها الى عمل آخر ، فانك متطلب شيئا لا تصل اليه قدرة الانسان [4] .

ولد وليم شكسبير في ستراتفورد (Stratford) الواقعة على نهر الافون (Avon)

---

(١) A Pageant of the Theatre, 120

(٢) المصدر السابق ص ١٢٠

(٣) المصدر السابق ص ١٢٠ .

(٤) المصدر السابق ص ١٢٠ .

عام ١٥٦٤ ، فقد ذكر سجل أبرشية ستراتفورد أنه عمد فى ٢٦ نيسان من ذلك العام[١] .

ومن الراجح ان جون شكسبير - ابا الشاعر - هو الابن الاصغر لرتشارد شكسبير الذى ذكرت اسمه سجلات بلدية سنترفيلد (Snitterfield) (وهى قرية على ثلاثة أميال من شمال شرقى ستراتفورد) عام ١٥٣٥ وذكرت موته عام ١٥٦٨ . وكان رتشارد هذا من صغار الفلاحين[٢] .

ولا نعرف تاريخ ذهاب جون شكسبير الى ستراتفورد للاقامة فيها ، ولكن السجلات ذكرت انه غُرّم فى ٢٩ نيسان ١٥٥٢ شلنا واحدا لوضعه كومة من الروث فى شارع هنلى (Henley)[٣] .

وبعد حوالى خمسة اعوام تزوج مارى بنت روبرت اردن (Robert Arden) صاحب الارض التى كان جون يفلحها[٤] ، فانجبا بنتين ماتتا صغيرتين (ربما بسبب الوباء الذى اجتاح البلاد[٥]) . وكان طفلهما الثالث هو وليم الشاعر والكاتب المسرحى الكبير[٦] .

وكانت ستراتفورد فى القرن السادس عشر بلدة يقطنها حوالى الفين ، وفيها سوق يؤمها سكان المنطقة المحيطة بها . وكان يديرها (منذ ١٥٥٣) مجلس مؤلف من اربعة عشر عضوا ، واربعة عشر تاجرا كبيرا .

وذكرت سجلات المحكمة اسم جون فى ١٧ حزيران ١٥٥٦ بسبب دين كان عليه ، فوصفته بانه بائع قفاز ، ووصفته وثائق اخرى فلاحا ، كما ذكر ايضا بائع شعير وخشب ، وجاء فى روايات متأخرة انه جزار ، وانه مارس تجارة الصوف ايضا ، ويبدو ان ماشية حقله فى انغون (Ingon) قرب سنترفيلد كانت تجهزه بما يبيعه من الصوف واللحم بالاضافة الى تجارة الجلود التى كان يتعاطاها[٧] .

---

(١) The Works of William Shakespeare, London, 1944, IV.

(٢) المصدر السابق (P.iv)

(٣) Halliday, F.E.; Shakespeare, (a Pictorial Biography, London 1956, 13. The Works of William Shakespeare, IV.

(٤) The Works of William Shakespeare, IV.
وانظر Shakespeare, (a Pictorial Biography, 12:

(٥) Shakespeare, (a Pictorial Biography, 13

(٦) المصدر السابق ص ١٣ .

(٧) The Works of William Shakespeare, IV.

وفي تشرين الاول من ذلك العام اشترى جون بيتا وحديقة في شارع غرينهل (Greenhill) وبيتا وحديقة في شارع هنلي (Henley) [١] ، ثم ابتسم له الحظ فتلقد كثيرا من مناصب البلدة ، فدعي عام ١٥٥٧ ليكون محلفا في المحكمة وفي خريف ١٥٥٨ أصبح مأمورا فيها ، وشهد في ٦ تشرين الاول ١٥٥٩ وقائع المحكمة مخمنا للغرامات • وذكر في سجلات ١٥٦٢ حاجبا ، فقدم (مع جون تيلر) حسابات المنطقة لعام ١٥٦٢ – ١٥٦٣ وعام ١٥٦٣ – ١٥٦٤ ، وظل يتقلب في مناصب البلدية حتى تصدر عام ١٥٦٩ اجتماعات المجلس الذي يدير شئون البلدة ، وفي عام ١٥٧١ عين رئيسا ، ثم صار نائبا للعمدة الجديد ارديان كويني (Ardian Quiney) (الذي قدر لحفيده فيما بعد ان يتزوج جوديت (Judith) بنت وليم شكسبير) وكان لوليم حينذاك (١٥٧١) سبعة اعوام[٢] • وليس من سجل يذكر تلمذته ولكن لا ريب في انه دخل مدرسة بلدته كسائر ابناء ستراتفورد ، وكانت مدرسة ذات مستوى مرموق ، وكان المديرون الذين تتابعوا على ادارتها – ايام طفولة الشاعر – من خريجي اكسفورد • • وكانت اللاتينية موضوع الدراسة الرئيس فيها كما كانت لغة التدريس • ويبدو من مقاطع في مسرحيات شكسبير انه تعلم من كتب مدرسية معينة كانت تستخدم في تلك الايام • كما يبدو من مسرحياته واشعاره انه اطلع على فرجيل (Virgil) وهوراس (Horace) [٣] •

ومما تقدم يبدو واضحا ان وليم شكسبير قضى أعوامه الاولى في جو من الدعة والرفاهية وأنه تلقى ثقافة ابتدائية في مدرسة بلدته[٤] ، ولكن ما ان بلغ الثالثة عشرة او الرابعة عشرة حتى أخذ نجم ابيه يأفل ، فتربت أسرته ، ولا بد انه اضطر الى ترك المدرسة ليعين اباه على حمل بعض الاعباء التي كانت تثقل كاهله[٥] ، ولكننا لا نعرف شيئا عن نوع العمل الذي مارسه ، فقد كثرت الروايات وتضاربت في ذلك :

---

(١) المصدر السابق (P.iv.)
(٢) المصدر السابق (P. iv—v)
(٣) المصدر السابق (P. v.)
(٤) انظر :– Masters of the Drama, 212
(٥) المصدر السابق ص ٢١٢

روى جون اوبرى (١٦٨١) « أن والده كان جزارا ، وقد قال لى بعض جيرانه انه مارس حرفة ابيه عند ما كان صغيرا ، فكان يقوم بقتل العجول قياما حسـنا ويجيد الخطب[١] » وذكرت رواية اخرى انه كان صانعا لجزار[٢] .

وفيعام ١٥٨٢ (عند ماكان فى الثامنة عشرة) تزوج آن هاثوى (Anne Hathaway) وهى بنت رتشارد هاثوى (Richard Hathaway) (فلاح من شوترى Shottery) وكانت تكبره بثمانية اعوام .

وفى ٢٦ مايس ١٥٨٣ وُلدت لهما سوزانه (Susana) ولم يمر على زواجهما الا ستة أشهر ، (وقيل انه تعجل الزواج من آن لانها حملت منه)[٣] .

ثم انجبت منه توأمين هما هامنت (Hamnet) او **هاملت** (Hamlet) (الـذى توفى عام ١٥٩٦) وجوديث (التى تزوجت حفيد ارديان كوينى الذى سـبقت الاشـارة اليـه)[٤] .

وليس لدينا بعد عام ١٥٨٤ ما يشير الى انه عاش مع زوجته او زارها حتى توفى ولده الوحيد هامنت فى سن الحادية عشرة فدفن فى ١١ آب ١٥٩٦[٥] ، ومن المحتمل ان وليم شكسبير عمل فى التعليم فى الريف بين ١٥٨٤ - ١٥٩٢ ، وان كنا لا نملك دليلا على ذلك لاننا لم نقف له على ذكر فى هذه الاعوام[٦] . ولكن من المؤكد انـه كان فى عام ١٥٩٢ فى لندن ممثلا ومهذب مسـرحيات وكاتبا مسرحيا متصلا اتصالا قويا بفرقة اللورد سترينج (Strange) التى صارت بعد ذلك تدعى فرقة تشـمبرلن (Chamberlain)[٧] .

---

(١) The Works of William Shakespeare, VI.

(٢) المصدر السابق p.v. (وقد تشير رواية قتل العجول والقاء الخطب الى مشاركته فى تمثيل تمثيلية قديمة تعرف بـ « قتل العجل »)

(٣) انظر Masters of the Drama, 212 — 213; The Works of William Shakespeare, V.

(٤) انظر Masters of the Drama, 213; The Wokrs of William Shakespeare, V.

(٥) Masters of Drama, 213.

(٦) المصدر السابق ص ٢١٣ .

(٧) المصدر السابق ص ٢١٣ وانظر :- Schelling, Felix E., Elizabethan Playwrights, New York, 1925, 71.

وقد اختلفت الروايات فى سبب ذهابه الى لندن فقيل ان لذلك علاقة بتخطيه على ارض السير توماس لوسى (Sir Thamas Lucy) وسرقته الغزلان والارانب منها فجلد وحبس احيانا مما اضطره الى ترك مسقط رأسه والفرار الى لندن(١) .

ويبدو ان لزواجه غير السعيد ، وما لحقه من اذى ، علاقةً بانفصاله من بلدته ، ويروى انه عند ما ذهب الى لندن كان فقيرا لا يملك شيئا وليس له اصدقاء يعينونه ، واذ كان غريبا لم يعرف احدا يلتجىء اليه ولا وسيلة يعتاش منها ، ذهب ، تسوقه الحاجة الملحة ، الى باب المسرح ، فحصل على نزر من المال بعنايته بخيول القوم الذين يرتادون المسرح لمشاهدة التمثيل ، وقيل انه برّز فى تلك الحرفة ، فاتسع عمله حتى عجز عن ادارته فاستأجر غلمانا يعملون تحت اشرافه عرفوا بعد ذلك بغلمان شكسبير ، وصادف ان جماعة من الممثلين حادثوه واصغوا اليه فتأثروا بحدة ذكائه وفصاحته وحلو حديثه فأوصوا به خيرا ورشحوه الى المسرح(٢) .

فانخرط ممثلا ثم صار مهذبا لمسرحيات كتاب آخرين فقاده هذا نحو مهنته التى عرف بها . ولنقف قليلا لنوضح شيئا من طبيعة عمله فى التهذيب ، فقد كان صاحب المسرح يشترى مسرحية من مؤلفها فتكون ملكا له يغير فيها او يهذبها متى اراد وكيف شاء . ويرجع كثير من الخلط والشك فى نسبة كثير من المسرحيات الايلزابثية (ومنها مسرحيات شكسبير ذات القيمة الثانوية) الى هذا التقليد(٣) .

وربما كان اتصاله بفرقة تشمبرلن الناجحة التى كانت تضم الممثل التراجيدى الكبير رتشارد بربج (Richard Burbage) والكوميدى الممتاز ول كيمب (Will Kemp) فى عام ١٥٩١ ، عند ما كتب القسم الثانى والثالث من مسرحية هنرى السادس . وفى السنة التالية لذلك كان ناجحا نجاحا أثار حسد الجامعى روبرت غرين (Robert Greene) وسخطه فتناوله تناولا لاذعا(٤) . وقد استطاع شكسبير باخلاقه الحميدة ونزاهته واستقامته وسحر تأليفه ان يكسب احترام كثير من ذوى النباهة

---

(١) The Works of William Shakespeare, VI.

(٢) المصدر السابق . (P. vi)

(٣) A Pageant of the Theatre, 121.

(٤) Masters of Drama, 213.

والشأن وتقديرهم[١] .

وقد أظهرت مسرحياته الاولى تأثرا بمن سبقه ، ولكنها أفصحت ايضا ، عن تقدم ينبيء بمستقبل رائع لهذا الفتى الموهوب . فقد ظهر انه يملك موهبة فائقة فى التعبير الموسيقى والتصوير قلما توفرت لمخلوق غيره ، وانه استفاد من حياته فى الريف ، فامتزج بالطبيعة ووقف على جمالها والحانها : فى أزهارها وأطيارها ، كما لونت خياله طبيعة خلابة تبدو امام ناظريه فى أزيائها المختلفة فى الفصول المتغيرة ، وفى يقظة الفجر وسكون الليل ، وفى مواكب السحب ، وقصف الرعود والعواصف ، وانهلال المطر[٢] .

ورفدته تقلبات الايام التى اضطربت فيها أسرته ، وما بلا من حلو ومر ، وما جرب من مجتمعه وزواجه ، بمعرفة واسعة للقلب الانسانى ، وما يضم من عواطف واطلاع شامل على سلوك الانسان وهو يضطرب مدفوعا بعواطفه ومطامحه وحاجاته ، اطلاع لعله لا يتاح لابناء الجامعة فى قاعات الدرس وصحبة الكتاب . فأصاب شكسبير نجاحا سريعا حتى انتهى الى أن يكون أروج كاتب مسرحيات فى زمانه ، فمثل رتشارد بربج الممثل الكبير فى تلك الايام أغلب أدوار ابطال مسرحياته أمثال هاملت والملك لير ومكبث وعطيل[٣] . وقيل ان شكسبير كان يظهر احيانا قائما بتمثيل ادوار صغيرة فى مسرحياته[٤] .

وقد كان كاتب المسرحية الايلزابثى ، على العموم ، يشرف على اخراج مسرحياته ، وهو ايضا يكتب لمدير مسرح واحد ، ولذلك فانه على علم تام بكفايات الفرقة ونواقصها ، وأفضت تجربة شكسبير فى التمثيل الى افكار معينة حول الفن ، فتراه فى مسرحياته يكرر مخاطبته المباشرة للممثلين وتند منه تلميحات الى ما يتصل بهم فيرثى للممثل حياته التى يجتهد فيها ان يمتع الجمهور بينما لا يحصل على شىء كبير فى هذه

---

(١) المصدر السابق ص ٢١٣ ـ ٢١٤

(٢) المصدر السابق ٢١٤

(٣) A Pageant of the Theatre, 121.

(٤) المصدر السابق ص ١٢١

الدنيا[١] واليك ترجمة لبعض اقواله في ذلك (ترجمة فيها شيء من التصرف) :

العيش في هـذي الحيـاة يبـدو ظـلالا حائـلات
كممثّل نـكد يحـــا ول جهد منبّت الصـلات
يقضي ســــوبعته بمســــرحـــه يؤدي الحادثات
ويغيب لاصوت... كظلّ زال من هـذي الحياة[٢]

وهناك تقليد آخر في المســـرح الذى كتب له شـكسبير مسرحياته ، ذلك هو التقليد الذى يقضى بأن تمتنع النساء عن الظهور على خشبة المسرح ، وهو تقليد سـار عليه المسرح الاغريقي والروماني ، وتأثر شكسبير بذلك ، ففى مسرحية « روميـو وجوليت » ـ وهى أول مسرحية حب آسر فى المسرح الانكليزى ـ اظهر شكسبير مهارة فائقة في وضع الحوادث والحوار بحيث يقل لقاء العاشـــقين لكى يتجنب المواقف المحرجة التى تحدث عند ما يقوم فتى بدور امرأة[٣] .

وكان شكسبير يعرف ذوق الجمهور والطريق لارضائه ، كما كان يميز فـى قرارة نفسه بين العمل الذى يتيح رضى عميقا وذلك الذى يقوم به لانه لابد ان يقوم به لضرورة قاهرة تدفعه اليه ليبقى على رواجه فجاءت مسرحيات له تشير صراحـــة باسمائها الى ذلك ، امثال : « كما تهوى » و « الليلة الثانية عشرة » و « كل ما انتهى بخير فهو خير »[٤] .

اما مآسيه فلا تحتاج الى مؤثرات مسرحية . واستخدم ، مع ذلك ، كثيرا مـن الحيل المسرحية في احيان مناســـبة كما في « العاصفة » وفى « حلم ليلة منتصف الصيف » . واعتذر فى افتتاحية هنرى الخامس عن عجز المســـرح فى ذلك الوقت عن ان يستوعب المناظر التى كان يهدف اليها[٥] .

---

(١) المصدر السابق ص ١٢١ ـ ١٢٢
(٢) The Korks of William Shakespeare .882 و(مكيث،الفصل الخامس،المنظر الخامس)
(٣) A Pageant of the Theatre, 122.
(٤) المصدر السابق ص ١٢٢
(٥) المصدر السابق ص ١٢٣

وقد حاول شكسبير فى أولى مسرحياته ان يستكمل أداته ويسـيطر عليها ، فاتسمت هذه المسرحيات بتقدم تدريجى تجرى خلاله نحو الشخصية المتميزة ، ومع ان شعر شكسبير الحـر كان أقل تعبيرا عن شخصية واضحة من شعر مارلو ، وان شعر مارلو كان اكثر قوة واشد تأثيرا ، فأن شكسبير بدأ يظهر أفقا أوسع وخيالا مصورا أكثر خصبا واقرب الى تلبية الحاجات المسرحية المتنوعة ، فكانت النتيجة أقل استشفافا للشخصية ولكنها أعلى مقاما فى المجالات المسرحية ، كما يبدو فى مسرحية رتشارد الثالث ، وهى من المسرحيات الاولى ، فان شخصية البطل لهذه المأساة التاريخية ، وان كانت متأثرة بعض الشىء بما يتسم به أسلوب مارلو من بلاغة وسـخرية ، فقد تكون أولى شخوص المأساة الشكسبيرية التى تنتزع نفسها من تقاليد الميلودراما (Melodrama) (المعتمدة على عنصر المفاجأة والعنف) فى ذلك الوقت فتبدو ولها قوة شخصية اصيلة[١]

وتقع مآسى شكسبير فى مجموعتين متميزتين تفصل بينهما فترة طويلة ، فقد كتب مآسى خالصة ، مثل روميو وجوليت ، وتاريخية مثل ريتشارد الثالث فى السنين الاولى من تأليفه عندما كان يكتب ايضـا مـلاهى مثـل جهـد الحب الضـائع (Love's Labour's Lost) وحلم ليلة منتصف الصيف (Midsummer-Night's Dream) ثم تلت ذلك فترة أمتدت الى حوالى ستة اعوام ، الف خلالها مسرحياته فى التاريـخ الانكليزى وهى مسرحيات اكثر نضجا وفكاهة (المسرحيات التى تشتمل على فلستاف وأحسن ملاهيـه الرومانسـية (التى تشـتمل على بياتريس وجـاك وفيـولا) ، وليس فى هذه السنوات مآسى ، ولا اية مسرحية تقترب من المأساة ، ولكن من حوالى ١٦٠١ الى ١٦٠٨ تدفقت من قلمه مأساة بعد مأساة :ـ يوليوس قيصر ، وهاملت ،وعطيل، والملك لير ، وتيمون الاثينى ، وما كبث ، وانطـونيو وكليوباترة ، وكـوريولانس ، ومسرحيات اخرى لاتوصف بأنها مأساة ولكنها ليست ملاهى ، على أيـة حال ، مثـل « كما تهوى » أو « العاصفة » . ويمكن تسمية هـذه الاعوام السبعة فترة شـكسـبير « التراجيدية » ، ولم يكتب بعدها مأساة ، فوجود هذه الفترة « التراجيدية » المتميزة ، فى وقت يبدو فيه شكسبير مشغولا تماما بمعضلات عميقة مؤلمة ، اشـارة الى الفكـرة القائلة : ان «الرجل» كان مثقل الروح كثيرا فى تلك المرحلة ، من عمره ، اى من عامه

---

(١) The Age of Shakespeare (Edited by Boris Ford), Great Britain, 1962, 180 — 181.

السابع والثلاثين الى الرابع والاربعين • لقد انقلب شكسبير الى المأساة لا لمجرد التغير فقط ، ولا لأنه شعر بأنها اعظم انواع « الدراما » وانه كفء لها ، وانما لأن العالم ايضا صار يبدو لعينه مظلما ومفزعا فى آن واحد(١) •

واذا تأملنا هذه المآسى وجدنا فرقا بين يوليوس قيصر وهاملت من جهة ، وبين بقية المآسى من جهة أخرى ، فكلا « بروتس » و « هاملت » رجل فكر وتأمل ، وان كان التأمل الفلسفى اكثر انطباقا على بروتس • وكلاهما رجل طيب يظهر ، فى المواقف المحرجة ، حرصا على عمل ما هو حق ، حرصا يكاد يكون معذبا • وهما وان اخفقا ـ بطرق مختلفة طبعا ـ فى معالجة تلك المواقف معالجة ناجحة ، فان الاخفاق فى كل حالة مرتبط بطبيعتهما العقلية وعادتهما التأملية اكثر مما هو مرتبط باستسلامهما الى العاطفة ، ولهذا السبب دعيت كلتا المسرحيتين « مأساة الفكر » • أما الابطال الآخرون:ـ عطيل ولير وتيمون ومكبث وانطونيو وكوريولانس ، فلهم طبيعة عاطفية ، وربما كان مرد اخفاق البطل فى كل هذه المآسى الى الاحساس الحاد ، وهذا السبب هو من جملة الاسباب التى جعلت هذه المسرحيات أكثر قوة وعصفا من الأثنتين الأوليين ، ذلك لاننا نشهد حشدا عظيما من الطبيعة الانسانية فى مضطرب العواصف ونجد قوة شكسبير تتجلى على نطاق واسع ...(٢) •

وتتميز المسرحيتان الاوليان ـ يوليوس قيصر وهاملت ـ بأن الشر الخلقى فيهما لم يفحص فحصا دقيقا او يعرض عرضا تاما • والقتل الذى يرتفع بالاداء المسرحى الى مستوى التوتر ، يقع خارج خشبة المسرح ، وينطوى مركز الاهتمام فى جهود البطل للقيام بواجبه •ويبدو واضحا ان اهتمام شكسبير منذ الايام الاولى عندما كتب رتشارد الثالث وهو تحت تأثير مارلو لم يكن موجها الى أشكال الشر الجامحة أو المفزعة ، غير ان مثل هذا الاهتمام فى تلك الاشكال يبدو واضحا فى المآسى التى تلت هاملت ، ففى ياجو وفى جماعة الملك لير الطالحين وحتى فى مكبث ، والسيدة مكبث ، تتجسد الطبيعة البشرية فى أشكال لاتوحى مجرد الحزن أو النفور ، وانما توحى الهلع والتقزز • وان لم تكن مسرحية تيمون تحتوى على قسوة جامحة ، فاننا نشهد مع ذلك ، الجحود والانانية

---

(١) Bradley, A.C., Shakespearean Tragedy, London, 1956, 80 — 81.

(٢) المصدر السابق ص ٨١ ـ ٨٢

عاريين الى حد يبعث مقتا لكلوديوس (Claudius) لم نشـــعر به نحــو احد مــن قبل[١] .

ويمكن وصف هذه المسرحيات بأنها مسرحيات الاحساس والشعور الحاد ولكنها ليست كلها تعرض الانواع المتطرفة للشر ـ فانطونيو وكوريولانس كلاهما ضحيــة العاطفة الحادة ، غير ان العاطفة التى حطمت انطونيو رفعته ايضا حتى لامس« اللانهاية » بها . وكبرياء كوريولانس وارادته وان كانا فظيعين فى عظمهمــا وطبيعتهما ، فليس فيهما دناءة ، وهذا المخلوق الكبير الذى حطمتاه مخلوق نبيل ومحبوب ايضا[٢] .

وقد بدا شكسبير خاصة فى « الملك لير » و « مكبث » ـ وهما من نتاجـــه فى عامى ١٦٠٥ ـ ١٦٠٦ و « انطونيو وكيلوباطرة » و « كوريولانس » ـ اللتين كتبهما فى ١٦٠٦ ـ ١٦٠٧ ـ بدا وقد ملك أداته وسيطر على صناعته ، فلم تفته اية سانحــة اتاحها مسرحه ، مستفيدا من خبرة غنية طويلة فى هذا المجال ، خبرة خمسة عشر عاما قضاها فى العالم الصاخب ، عالم المسرح ، والتأليف المســرحى ، فقرّب الى الكمال شعرا مترعا بالحياة متدفقا بألوان مختلفة من العواطف الانســـانية ، مصورا ضعف الانسان وقوته فى مواقف مختلفة ، فجاء من الوجهة المسرحية بعيد التأثير ، شـــديد الاسر ، مرنا دقيق التصوير ، صفا حتى كاد يكون أداة شـــفافة للتجربة التى يلم بهــا[٣] .

ولا تمثل « انطونيو وكليوباطرة » و « كوريو لانس » آخر مرحلة فى تطــور الفنان ، وان كانتا آخر المآسى العظيمة ، فقــد اعقبتهما سلسلة من مســرحيات كتبها ، على ما يظهر ، بين ١٦٠٨ و ١٦١١ ، هى بركليس وسمبلاين وحكاية الشتاء والعاصفة ، وهى مسرحيات يتصل بعضها ببعض فى الفكرة ، وتمثل جهدا يحاول اكســاء مفهوم

---

(١) المصدر السابق ٨٢ ـ ٨٣

(٢) المصدر السابق ص ٨٣

(٣) The Age of Shakespeare, 232.

رمزى جديد ثوبا فنيا ••• وتنطوى هذه المسرحيات على علاقة بين الهــدم والبناء ، وتشتيت الشمل وجمعه ، وقد ابدع شكسبير فى تصوير بناء الاسرة ووحدتها ، تلعب بها العاطفة ، ويفعل بها الزمن فعله ، فاذا بالروابط الانســانية المتواشجة ، تتفكك وينأى بعضها عن بعض ، واذا بالاسرة تتمزق ويتشتت افرادها كما فى ســمبلاين ، وتجرى المسرحية فى تصوير العذاب والندم الذى يتبع هذه الجفوة بين افراد الاسرة ثم تنتهى بنهاية جميلة فتعود الفتاة النائية (والنائى على الاغلب فتاة) الى ابيها تطلب اليه ان يباركها(١) •

خاتمـة المطـاف

لا نعلم يقينا خاتمة شكسبير الفنية ، ولكن يبدو انه لم يكتب بعد ١٦١٣ ايــة مســرحية •

ويبدو كذلك انه اخذ يتردد على ستراتفورد منذ ١٥٩٧ حين اشترى فيها البيت المسمى « المكان الجديد » (New Place) وبعض الاقطاعات بعد ذلك ، واغلب الظن انه اتخذ ستراتفورد مكان اقامته فى ١٦٠٩ وصار يلم بعد ذلك بلندن بين حين وحين • وعاش فى مدينته سيدا ثريا محترما من الجميـع ، متمتعا بالريف الجميل ، معتنيا بحديقته (وكان يملك حديقتين) آنسا بحياة هادئة رخية وبزيارات من اصدقائه فى لندن ، وقد روى ان مجلس شرب ضم دريتون (Drayton) وبن جونســون ، وشكسبير ، فى احدى هذه الزيارات ، كان سببا فى وفاته ، فقد شربوا واسرفوا فــى الشرب ، وادى ذلك الى ان يصاب شكسبير بحمى اودت به فى الثالث والعشــرين من نيسان (وهو يوم ولادته ـ على ما تروى المصادر) عام ١٦١٦(٢) •

فن شكسبير وخصائصه

ان المسرحيات الايلزابثية ، فى عمومها ، مسرحيات دنيوية تحفل بهذه الحيــاة

(١) المصدر السابق ص ٢٥٧
(٢) انظر :ـ The Works of William Shakespeare, xii — xiv; Masters of the Drama, 236.

وتعنى بأمورها ، وقد اقتصر شكسبير – عبقرى الفترة الايلزابثية – فى مسرحياته على العالم الدنيوى ، فكان ينظر اليه فى جد ويقظة ، فصوره فى أمانة تامة من غير ما رغبة فى فرض رأيه الخاص على غيره دون حساب لآماله ومخاوفه ومعتقداته ، ومرد عظمته فى تصويره الامين هذا الى انه كان يتمتع بقوة ذهنية فائقة تستطيع ان تحيط بالمواقف من جهاتها المختلفة ، فترمى بها على المسرح فى دقة عجيبة ، فجاءت مسرحياته صوت فترة كاملة ، تفصح فى كل النغمات والطرق الممكنة ، وتعبر من خلال أفواه شخوصها عن مبلغ المعرفة آنذاك ، وعما يعنى به الناس ، كما تعبّر عن العواطف والافكار التى تؤلف ما يدعى بروح العصر(١) •

فمسرحياته ، اذن ، فى مجموعها ، خلاصة عهد عظيم ، هو عهد النهضة ، وعلاقته بالانسانية عامة ومفتاح الحياة عند شكسبير – وفى عصره – انما هو الفردية •

فلقد ابتدع شخوصا ذات فردية متميزة جدا ، لم تتوفر فى شخوص اى مؤلف آخر غيره • اجل ابتدع شخوصا ، هى نماذج على حد قول جونسون – تتحرك وتتكلم بتأثير العواطف العامة والمبادىء التى تثير الاذهان كلها(٢) •

وصراع الشخوص ، فى مسرحياته ، يعتمد على جهود الارادة الانسانية ، ففيها يقف انسان ضد انسان ، لاضد القدر أو الاله أو الوراثة • فمسرحيات شكسبير هى مسرحيات الارادة الفردية ومسرح هذه طبيعته يستطيع ان يكون مؤثرا ومثيرا فى آن واحد ، كما يستطيع ان يرتاد اعماقا كثيرة فى الشخصية الانسانية ، ويكون فوق ذلك ، واضح المعالم والسمات •

ومؤلف « مسرح الفردية » هو ذلك الكاتب الواسع الافق الذى لايتقيد « بالمحليات » ولا يقتصر على حدودها التى تسجن انتاجه بحدود زمانها ومكانها فهو

---

(١) Shakespeare, (Fluchére), 7.

(٢) انظر :–
Raleigh, Walter; Johnson on Shakespeare, London, 1946, 12.

يستخدمها ليبدع منها شخصية عامة ، شخصية تجد مكانها فى مجتمعات العصور ، وان حملت طابع زمانها وبعض ملابسات بيئتها •

ومع ان المأساة عند شكسبير تعنى دائما بشخوص ذوى منزلـة عالية ، وغالبا ما تعنى بالملوك والامراء او قادة الدولة وافراد الأسر العظيمة ، فهى لم تنس افراد الطبقات الاخرى ، وقد ساعد التباين المرن بين طبقات الفترة التى عاشـها ، على ان يلتفت الى مختلف مستويات المجتمع تقريبا •

فاليد التى رسـمت الامرا ءوالنبلاء ، صورت كذلك التجار والموظفين الصغار والجنود والمخادعين والمتسولين • وهذه الفردية التى تتميز بها شخوص شكسبير تشمل الجنسين ، فقد انتصر الفن ايضا فى نساء مسرحياته •

لقد كان عصره شديد الاحتفال بالحياة شديد الاحسـاس بهافحفلت صفحات مسرحياته بهذا الاحساس ، فالقهقهة والدموع ، والطموح المتوثب ، والاعمال الضائعة والجرى وراء اللذة ، كلها تتجاوب ، ويجاور بعضها بعضا فى مسـرحياته • وكـل شىء يجرى بلا هوادة ، وكل شخوصه مؤثرة : أبطـال تربح العروش والمجد ، أو صعاليك يسلبون ويعربدون ، وملكات تتأجج العواطف فى صدورهن ، وبغايا لاينتهى بهن درب الى غاية ، وفتيات خلقن للزواج ، وأخريات يتزيين بزى الاولاد ليتبعن من علقن بهم ، وكثيرا ما انتصرت شخوصه على ما فيها من عجز وقصور ، فهى تنتزع من اندحارها مواقف جديدة من التوتر والحدة ، سواء أكان هذا الاندحار نتيجة عاهات جسمية ، كما فى حالة رتشارد الثالث ، ام من اخفاق خارجى جره خطأ اقترفته أو شر ضمت عليه الجوانح ، فعندما خلع رتشارد الثانى كشف عن مواطن قوة جديدة ، فى حالة متأزمة ولكنها حافلة بالكرامة والوقـار فأضفت على هـذا الضعيف الطائش نبلا وخطرا جديدا ولم ينكسر « لير » ، ولكنه لم يكن قط مؤثرا مثلما كان حينما هجرته بنتاه ، كما لم يكن عظيما فى عواطفه التى سببتها آلامه حسب ، ولكنه زاد ادراكا لأنه اكتسب فهماً للحياة الجديدة ، اما عطيل ـ وكان يشعر برفعة مقامه قائداً للجمهورية ويختتم كلامه بقوله « لقد اديت الى الدولة بعض الخدمة وهم يعلمون ذلك » ـ فانـه يؤكد كرامته فيطعن نفسه بعد ان حاصرته الغيرة العمياء •